هل يسقط نظام إيران؟

الجمعة 20 يونيو 2025 01:00 م

بقلم: غازي دحمان

أخذت الحرب بين إيران وإسرائيل سياقاً جديداً يقطع مع النمط السابق في الصراع، في الأدوات والأهداف.

إذ يخوض الطرفان حرباً مباشرةً تهدف إلى تدمير قدرات كلّ منهما، على المستويات العسكرية والاقتصادية، في مغادرة نهائية لنمط الضربات مرّة واحدة الذي ساد بعد "طوفان الأقصى"، وبطبيعة الحال، نمط حرب الوكلاء الذي استخدمته إيران، وحرب الضربات الاستخباراتية وعمليات الاغتيال، التي مارستها إسرائيل.

إنها لحظة استثنائية في تاريخ الصراع بين الطرفَين، فالأحداث في كثافتها هي الأقسى، لا سيّما على إيران في العقود الماضية من حكم النظام الإسلامي فيها.

وتستدعي وتيرة الضربات الإسرائيلية بطبقاتها المتعدّدة التساؤل عمّا إذا كان الهدف منها تدمير السلاح النووي، ثمّ العودة إلى السياق الطبيعي الذي كانت عليه الأمور، أم ستأخذ الأمور مساراً آخر يهدف إلى إسقاط النظام وإحداث أكبر تغيير في الشرق الأوسط منذ عقود؟

لفهم الديناميكيات الصاعدة في المنطقة منذ "طوفان الأقصى"، والتطوّرات التي لم تنقطع عن الجريان، لم يعد مناسباً قراءة السياسات في المنطقة بالاعتماد على الخلفية التاريخية وثوابتها السياسية والمصالح التي شكّلتْ تلك السياسات، ووضعتْ تالياً محدّدات الحروب في المنطقة وحدودها، ورسمتْ المعادلات ووضعتْ قواعدَ للاشتباك متضمّنةً الخطوط الحمراء التي يتوجّب عدم تجاوزها، فذلك البناء كلّه تهدّم خلال السنوات السابقة، إمّا لأن المصالح تغيّرت وبات ملحّاً صناعة وقائع جديدة تخدم هذه المصالح، أو لصعود ديناميكيات جديدة باتت تحتم أخذها في الاعتبار، وضبطها ضمن معادلات جديدة.

يتمثّل المتغير الأساس في المعادلة الجديدة، الذي سيتم البناء عليه في سياسات القوى الفاعلة واستراتيجياتها في المنطقة، بتراجع أهمية إيران في التوازنات الإقليمية والدولية في الحسابات الأميركية، إذ كانت الإدارات الأميركية، على مدار العقود السابقة، تعمل في تغيير سلوك النظام الإيراني، وليس تغييره، انطلاقاً من حاجة الاستراتيجية الأميركية إلى وجود إيران نقطة توازن في آسيا الوسطى ومع روسيا، ولإبقاء دول الخليج العربي سوقاً ضخمةً للسلاح الأميركي، وفي إطار منظومة المصالح الضيّقة، أو المحدودة بعناصر قليلة.

انتعشت أدوار إيران وسُمح لها بالتمدّد وصناعة نفوذ إقليمي واسع، طالما أن ذلك يغذّي المصالح الأميركية، ولو بطريقة غير مباشرة.

لكن الصراع مع الصين، والتطوّرات التقنية المتسارعة، وبروز تعريف جديد للمصالح أوسع نطاقاً يدمج في إطاره الديناميكيات التقنية، والتغيرات الجيوسياسية الناشئة، دفع العقل الاستراتيجي الأميركي إلى تعديل تكتيكاته ليتوافق مع التطوّرات التي فرضها صعود الصين المُتسارع، وضبط تصوّراته ورؤاه وفق خريطة جديدة من المشاريع الاقتصادية المنافسة للمشروع الصيني، مثل الممرّ الهندي والصفقات التريليونيية مع دول الخليج، التي تخدم تطوير برامج استراتيجية كُبرى، مثل الذكاء الصناعي ومكوّنات الثورة التكنولوجية الرابعة، بوصفها إحدى أدوات المنافسة التي تضمن لأميركا البقاء قوةً عظمى في حلبة الصراع.

في ظلّ هذه المعادلات، فقدت إيران وزنها في الحسابات الاستراتيجية الأميركية، لا نظام حكم وحسب، بل وجودها في حدّ ذاته وحدةً سياسيةً تسيطر على جغرافيا واسعة، ينضوي تحت حكمها طيفٌ واسعٌ من الإثنيات الراغبة في الاستقلال، وتبدي استعدادها للانخراط في مشاريع تخدم منظومة المصالح المعقّدة والمتشابكة، في بلدٍ يملك من الثروات الغازَ والمعادنَ النادرةَ وسواها، التي باتت تمثّل لوازم تشغيلية ضرورية للاقتصادي العالمي في نمطه الجديد، وهذا ما يدفع أميركا إلى الانحياز لتفضيلات جديدة لا تتوافق مع النسق الاستراتيجي القديم الذي بات غير صالح للتقييم والحساب، كما بات نموذج النفوذ الإيراني القائم على زرع المليشيات وصناعة الأذرع خارج أيّ إمكانية للتعايش معه، في الوقت الذي ينشأ فيه إقليم واعد ومزدهر يتألّف من دول الخليج وتركيا، سيكون من الخطر استمرار ايران في وضعها الحالي.

تدعم لوحةَ المتغيّرات ديناميكياتٌ ناشئةٌ بدأت تفرض نفسها بقوة في صناعة مسارات المنطقة، فأصبح هناك تيّار إسرائيلي داخل الجيش يقوده رئيس أركانه، إيال زامير، استطاع إقناع المستويات الأمنية والسياسية في إسرائيل بأن الخيار الأفضل في التعامل مع المعضلة الإيرانية، ليس ضرب المنشآت النووية فقط، إذ طالما بقي النظام الحالي، فسيعاود بناء قدرات إيران النووية، والحلّ الأمثل المساعدة في وصول نظام جديد يغيّر المعادلة من خلال كسر الإجماع في صفوف الطبقة السياسية في البلاد بشأن البرنامج النووي.

يتزامن ذلك مع متغيّر داخلي إيراني مهم، يتمثّل في ظهور جيل إيراني شابّ لديه نزعة كبيرة للتمرّد على السلطة التقليدية للملالي،

ويعترض طريقة تفكيرها وأيديولوجيتها الصارمة ونمط إدارتها السياسات العامّة والسياسات الخارجية بات هذا الجيل، المتأثر بالأفكار ومنظومات القيم الغربية، يشكّل تحدّياً فعلياً لنظام الملالي
لكن ما سبق وذكرناه لا يكفي لتحقيق الطموح الإسرائيلي بإسقاط النظام المتشعّب والمتغلغل داخل المجتمع المحلّي، ولديه تأييد من فئات واسعة في إيران، ولو لأسباب مصلحية وعقائدية، وفكّ ارتباط هذه الفئات (المؤثّرة في الغالب، سواء في الجيش أو في الاقتصاد) بالنظام الإيراني، يحتاج بالدرجة الأولى إلى صدمة تقنع هؤلاء أن النظام لم يعد قادراً على الصمود، وأن إنقاذ مصالحهم يستدعي الانفكاك عنه، وذلك ربّما يحتاج إلى حرب طويلة الأمد، وظهور بديل قادر على حفظ التوازنات الداخلية ومصالح الفاعلين، وقيادة الداخل الإيراني